

السراب

إنَّ الذي يسلك الصحراء يراه من بعيد وكأنَّه عينٌ من الماء الزُّلال تحدِّقُ صافيةً في عينِ الشَّمسِ، فإذا كدَّ الرِّكابُ وحثَّ الصِّحَابُ لم يجده سوى ترابٍ يابسٍ لِحياةٍ فيه ولا على ما يدلُّ على أنه ماءٌ، وهكذا كان العرب قديماً؛ أما في زمننا الحاضر فيراه سائقو المركبات عبر الطرق الطويلة بين المدن والدول على هيئة تجمعات مائية على قارعة الطريق سرعان من تتلاشى كلما اقترب منها السائق ومرافقوه، وهي ظاهرة فيزيائية لها قوانينها الرياضية التي يعرفها الاختصاصيون في هذا المجال، والقرآن الكريم تحدث عن هذه الظاهرة في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يُحْسِبُوهَا الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ سَيْئًا فَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (٣٩) (١)، والذي أعنيه من الحديث عن ظاهرة السراب إنما أعنى المعنى الذي أراده القرآن الكريم في الآية السابقة من أن كثيراً من الناس لا تكون أعمالهم في الحياة الدنيا أكثر منها سرايا وخداعاً ووهماً تعيشه تلك الفئة الكافرة برب العالمين الضالّة سواء السبيل؛ المنغمسة في ملذات الدنيا وبها رجها معتقدين أن ذلك هو غاية ما يمكن للإنسان تحقيقه؛ كما أن غيرهم ممن أعمتهم ملذات الدنيا عن نعيم الآخرة من المسلمين هم كذلك يعيشون وهم الحياة؛ ويضيعون الكثير من المكاسب الأخروية بسبب انشغالهم بسراب الدنيا. وإلا فالحياة الحقيقية هي تلك التي يقضيها الإنسان في تحقيق العبودية لله وحده كما في قوله تعالى: (مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (٥٦) (٢).

(١) سورة النور.

(٢) سورة الذاريات.